Route Educational & Social Science Journal
Volume 6(2) ; January 2019

# لمحات جمالية من سورة آل عمران

# Beautifull views of Surat Al – Imran

د. عبد الكريم محمد خلف ضاحي الجنابي

Dr.abdul kareem mohammed khalaf

جامعة الأنبار – المكتبة المركزية

University of Al-anbar

**الملخص**

يتضمن بحثي هذا الحديث عن بعض الجوانب التي أضفت جمالية على التعبير القرآني في بداية سورة آل عمران ، فتطرقت إلى بعض التعبيرات المشكلة من حيث المعنى التي وردت فيها والتي سُرعان ما زال إشكالها بعد القراءة المتأنية لها من قبل المفسرين ، وكذلك تحدثت عن بعض الفنون البلاغية التي حوتها هذه الآيات البينات مُبرزاً أثرها الساحر على النص القرآني الذي يستهدف المتلقي في كل زمان ومكان .

## Summary

My research includes some aspects of the Quranic expression at the beginning of Surat Al-Imran. It touched upon some of the expressions that were problematic in terms of the meaning in which they were mentioned, which soon became problematic after careful reading by the interpreters. These verses illustrate the magic effect on the Quranic text that targets the recipient at all times and places.

## المقدمة

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد : فإن (( الحياة في ظلال القرآن نعمة ، نعمة لا يَعرفها إلا من ذاقها ، نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه ))[١] ومن هذا المنطلق كان بحثي هذا عن بداية سورة آل عمران ، ولولا خشية الإطالة لدرست السورة كلها فإن (( الحديث في القرآن الكريم طريف في كل وقت ، لذيذ في كل حال ، فيَّاض المعين ، خصب الجوانب ، لا يمكن أن ينتهي حسنه أو تبلى جدته ، أو يُملَّ جرسه ، أو يثقل على السمع رجعه ))[٢] ، وقد أسميته " لمحات جمالية من سورة آل عمران" ، علِّي أنال بركة القرآن الكريم ، وقد قسَّمتُه على مبحثين :

المبحث الأول : التعبيرات المشكلة من حيث المعنى .

المبحث الثاني : الفنون البلاغية .

ثم ختمتُ البحث بخاتمة ذكرتُ فيها أهم النتائج التي توصلتُ إليها ، وبعدها ذكرتُ المصادر ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

## المبحث الأول : التعبيرات المشكلة من حيث المعنى :

الإشكال لغةً : الشَكل بالفتح : الشبه والمثل ، والجمع أشكال وشكول ، وقد تشاكل الشيئان وشاكل كل واحد منهما صاحبه ، والشكل : المثل ، تقول : هذا على شكل هذا ، أي : على مثاله ، وفلان شكل فلان أي مثله في حالاته ، ويقال : هذا من شكل هذا ، أي : من ضربه ونحوه ، وهذا أشكل بهذا ، أي : أشبه ، وأشكل الأمر : التبس ، وأمور أشكال : ملتبسة ، وبينهم أشكلة ، أي : لبس ، والأشكل من الإبل والغنم : الذي يخلط سواده حمرة أو غبرة كأنه قد أشكل عليك لونه ، وتقول في غير ذلك من الألوان : إن فيه لشكلة من لون كذا وكذا كقولك : أسمر فيه شكلة من سواد ، والأشكل في سائر

[١] في ظلال القرآن – سيد قطب – دار إحياء التراث العربي – بيروت – ط٧ – ١٩٧١ : ١ / ٣ .

[٢] القرآن الكريم دراسة – إبراهيم علي أبو الخشب – دار الثقافة العربية للطباعة – د.ت : ٣ .

الأشياء بياض وحمرة قد اختلطا ، قال ابن دريد : إنما سُمي الدم أشكل للحمرة والبياض المختلطين فيه[٣] .

وفي الاصطلاح عرَّفه الجرجاني فقال :(( المشْكل :هو ما لايُنال المراد منه إلا بتأمل بعد الطلب ))[٤]. من خلال ما تقدم من تعريفات نستطيع القول :أن الإشكال غير الاختلاف والمناقضة ؛ لأن القرآن الكريم خالٍ عنهما فهو كتاب الله الخالد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

والإشكال من حيث المعنى معناه :(( أن هناك ألفاظاً في القرآن الكريم ظاهرها أنها تُناقض معنى من المعاني أو حقيقة ثابتة لا يمكن أن تتغير أو تتبدل ))[٥] ، والظاهر هذا غيرُ صحيحٍ ، إذ سُرعان ما يزول بعد النظر الدقيق والاستقراء العميق لآيات الله البيِّنات .

وقد ورد في بداية سورة آل عمران نماذج من هذا القبيل ، ومنها :

الإشكال الأول : في قوله تعالى :(( هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ))[٦].

فإن قيل : إذا أنزل القرآن للبيان فكيف لم يُجعل كُله واضحاً ؟

قيل : الحكمة في ذلك أن (( يظهر فضل العلماء ؛ لأنه لو كان الكل واضحاً لم يظهر فضل العلماء بعضهم على بعض وهكذا يفعل كل من يُصنف تَصنيفاً يجعل بعضه واضحاً وبعضه مُشكلًا ويترك للحيرة موضعاً ؛ لأن ما هانَ وجوده قل بهاؤه ))[٧] . بهذا أجاب السمرقندي عن هذا الإشكال .

---

[٣] ينظر : الصحاح – إسماعيل بن حماد الجوهري – تحقيق أحمد عبد الغفور عطار – دار العلم للملايين – بيروت – ط٢– ١٩٧٩م : ٥ / ١٧٣٧ مادة (شكل) ، ولسان العرب – جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور – دار صادر – بيروت – د.ت : ١١ / ٣٥٦ . ٣٥٧ مادة (شكل) ، وتاج العروس – محمد مرتضى الزبيدي – دار صادر – بيروت– د.ت : ٧ / ٣٩٢ . ٣٩٤ مادة (شكل) .

[٤] التعريفات – علي بن محمد الجرجاني – طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية العامة – د.ت : ١٢٠ .

[٥] قضايا التعبير القرآني في سورة مريم – إسراء جميل شريف – رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية التربية للبنات – جامعة الأنبار – ٢٠٠١م : ١٠ .

[٦] سورة آل عمران : ٧ .

[٧] تفسير السمرقندي (بحر العلوم) – نصر بن محمد السمرقندي – تحقيق علي محمد وآخرون – دار الكتب العلمية – بيروت – ط١ – ١٩٩٣م : ١ / ٢٤٧ .

أما الماوردي فقد أجاب عنه بقوله : (( وإنما جعله مُحكماً ومُتشابهاً استدعاءً للنظر من غير اتكال على الخبر))[٨] ، وتعرض الزمخشري أيضا لهذا الإشكال وأجاب عنه بقوله : (( لو كان كله مُحكماً لتعلقَ الناس به لسهولة مأخذه ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل من النظر والاستدلال ، ولو فعلوا ذلك لعطَّلوا الطريق الذي لا يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده إلا به ، ولما في المتشابه من الابتلاء والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه ، ولما في تقادح العلماء واتعابهم القرائح في استخراج معانيه ورده إلى المحكم من الفوائد الجليلة والعلوم الجمة ونيل الدرجات عند الله ، ولأن المؤمن المعتقد أن لا مناقضة في كلام الله ولا اختلاف فيه إذا رأى فيه ما يتناقض في ظاهره وأهمه طلب ما يوفق بينه ويجريه على سنن واحد ففكَّر وراجع نفسه وغيره ، ففتح الله عليه وتبيَّن مُطابقة المتشابه المحكم ازداد طمأنينةً إلى مُعتقده وقوةً في إيقانه ))[٩] ، ولهذا جاءت الأحكام الشرعية كلها في الآيات المحكمة ، أما المتشابه فقد مثّل الإعجاز للبشر أجمعين كما هو الحال مع الحروف المقطعة في بداية بعض السور القرآنية ، وبهذا الاستقراء الدقيق للمعاني الجليلة التي حوتها ألفاظ الآية الكريمة زال الإشكال واتضح المراد للمتلقي في كل زمان ومكان ، وذلك بجهود هؤلاء الثلة من المفسرين رحمهم الله أجمعين .

الإشكال الثاني : في قوله تعالى :(( قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ))[١٠] .

كان عدد المشركين في معركة بدر ثلاثة أمثال عدد المسلمين كما ثبت ذلك في كتب السيرة[١١]، ومع ذلك فقد خاطب الله المسلمين بهذه الآية الكريمة والتي تعني أن المسلمين يرون المشركين مثليهم وهم كانوا ثلاثة أمثالهم . فإن قُلتَ : فكيف جاز أن يُقال (مثليهم) يريد ثلاثة أمثالهم ؟

---

[٨] تفسير الماوردي – علي بن حبيب الماوردي البصري – تحقيق خضر محمد خضر – راجعه د. عبد الستار أبو غدة – مطابع مقهوي – الكويت – ط١- ١٩٨٢م : ١ / ٣٠٥ .

[٩] تفسير الكشاف – جار الله محمود بن عمر الزمخشري – دار المعرفة – بيروت- د.ت : ١ / ٤١٢ . ٤١٣ .

[١٠] سورة آل عمران : ١٣ .

[١١] ينظر : السيرة النبوية – ابن هشام – تحقيق مصطفى السقا وآخرون – مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده – مصر – ١٩٣٦م : ٢ / ٢٦٩ .

قلت : (( كما تقول وعندك عبد : أحتاج إلى مثله ، فأنت محتاج إليه وإلى مثله ، وتقول : أحتاج إلى مثلي عبدي ، فأنت إلى ثلاثةٍ مُحتاج ، ويقول الرجل : معي ألف وأحتاج إلى مثليه ، فهو يحتاج إلى ثلاثة ، فلما نوى أن يكون الألف داخلاً في معنى المثل صار المثل اثنين والمثلان ثلاثة ، ومثله في الكلام أن تقول : أراكم مثلكم ، كأنك قلت : أراكم ضعفكم ، وأراكم مثليكم يريد ضعفيكم ، فهذا على معنى الثلاثة ))[١٢] . بهذا أجاب الفراء عن هذا الإشكال .

ورد القرطبي عليه قائلاً : (( وزعم الفرَّاء أن المعنى : ترونهم مثليهم ثلاثة أمثالهم وهو بعيد غير معروف في اللغة ، قال الزجاج : وهذا باب الغلط فيه غلط في جميع المقاييس ؛ لأنا إنما نعقل مثل الشيء مساوياً له ونعقل مثليه ما يساويه مرتين ... والذي أوقع الفرَّاء في هذا أن المشركين كانوا ثلاثة أمثال المؤمنين يوم بدر فتوهم أنه لا يجوز أن يكونوا يرونهم إلا على عدَّتهم وهذا بعيد وليس المعنى عليه وإنما أراهم الله على غير عدتهم لجهتين : إحداهما : أنه رأى الصلاح في ذلك ؛ لأن المؤمنين تقوى قلوبهم بذلك ، والأخرى : أنه آية للنبي ﷺ ))[١٣].

والتأويل (( الأصح : كان المسلمون يرون المشركين مثلي عدد أنفسهم قلَّلهم الله تعالى في أعينهم حتى رأوهم ستمائة وستة وعشرين ))[١٤] ، وذلك أن الله كان قد أعلم المسلمين أن المائة منهم تغلب المائتين من الكفار[١٥] فأراهم المشركين على قدر ما أعلمهم أنهم يغلبونهم ؛ لتقوى قلوبهم[١٦] . يؤيد ذلك ما قاله ابن مسعود رضي الله عنه: (( نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا ))[١٧] ، ونلاحظ من خلال

---

[١٢] معاني القرآن – يحيى بن زياد الفراء– عالم الكتب – بيروت– ط٢– ١٩٨٠م :١ / ١٩٥ .

[١٣] تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) – محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي – مطبوعات دار الشعب – د.ت : ٢ / ١٢٦٨ . ١٢٦٩ .

[١٤] تفسير البغوي (معالم التنزيل) – الحسين بن مسعود البغوي – تحقيق عبد الرزاق المهدي – دار إحياء التراث العربي – بيروت – ط١ – ٢٠٠٠م : ١ / ٤١٦ . ٤١٧ .

[١٥] وذلك في قوله تعالى (( الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ )) سورة الأنفال: ٦٦ .

[١٦] الوسيط – علي بن أحمد الواحدي – تحقيق الشيخ عادل أحمد وآخرون – دار الكتب العلمية – بيروت – ط١ – ١٩٩٤م : ١ / ٤١٧ .

[١٧] تفسير الطبري (جامع البيان) – محمد بن جرير الطبري – دار الفكر – بيروت– ١٩٨٨م : ٣ / ١٩٨ .

استقراء أقوال المفسرين أن بعضهم اعتمد على التفسير اللغوي بمعزل عن السياق التأريخي الذي ورد فيه ، فلم يوفقوا في إزالة الإشكال . أما الآخرون فقد أحسنوا القراءة اللفظية إذ تأملوها في سياقها التأريخي فوصلوا إلى المبتغى المطلوب وأزالوا الإشكال القائم بمنتهى الإبداع .

الإشكال الثالث : في قوله تعالى :(( فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ))[١٨] .

فإن قيل : في أمره تعالى عند حجاجهم بأن يقول :(أسلمت وجهي لله) عدولٌ عن جوابهم وتسليم لحجاجهم ، والجواب على ذلك من أمرين : (( أحدهما : ليس يقتضي أمره بهذا القول النهي عن جوابهم والتسليم بحجاجهم ، وإنما أمَرَه أن يُخبرهم بما يقتضيه مُعتقده ، ثم هو في الجواب لهم والاحتجاج على ما يقتضيه السؤال . الثاني : أنهم ما حاجّوه طَلَباً للحق فيلزمه جوابهم ، وإنما حاجّوه إظهاراً للعناد فجازَ له الإعراض عنهم بما أمرَه أن يقوله لهم ))[١٩]. وبهذا أجاب الماوردي عن هذا الإشكال ، وتعرَّض ابن عاشور لهذا الإشكال فبيّن أن للمفسرين في المراد من هذا القول طرائق ثلاث : إحداها : أنه مُتاركة وإعراض عن المجادلة ، أي : اعترفتُ بأن لا قدرة لي على أن أزيدكم بياناً ، أي : أني أتيتُ بمنتهى المقدور من الحجة فلم تقتنعوا ، فإذ لم يُقنعكم ذلك فلا فائدة في الزيادة من الأدلة النظرية ، فليست مُحاجّتكم إياييّ إلا مكابرة وإنكاراً للبديهيات والضروريات ... فالأجدر أن أكف عن الازدياد .

الطريقة الثانية : أن قوله : (فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِي) تلخيصٌ للحجة ، واستدراج لتسليمهم إياها ، وفي تقريره وجوهٌ مآلها إلى أن هذا استدلال على كون الإسلام حقاً .

الطريقة الثالثة : وحاصلها أن يكون هذا مرتبطٌ بقوله :(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلام)[٢٠] أي: فإن حاجّوك في أن الدين عند الله الإسلام ، فقل : إني بالإسلام أسلمتُ وجهي لله فلا ألتفتُ إلى عبادة غيره مثلكم ، فديني الذي أرسلت به هو الدين عند الله ، أي هو الدين الحق وما أنتم عليه ليس ديناً عند الله[٢١]، وبهذه

---

[١٨] سورة آل عمران : ٢٠ .

[١٩] تفسير الماوردي ١ / ٣١٤ .

[٢٠] سورة آل عمران : ١٩ .

[٢١] التحرير والتنوير – محمد الطاهر بن عاشور – مؤسسة التأريخ – بيروت – ط١- ٢٠٠٠م : ٣ / ٥٧ – ٥٨ .

الإحاطة ذات المعاني المتعددة والتأويلات التي لا تدع مجالاً للإشكال يتضح المراد القرآني ، وذلك بفضل القراءة المتأنية للدلالة التي أنتجها اللفظ المعين والاستعانة بالآيات الواردة في السياق نفسه وباجتماع كل ذلك تمت قراءة النص وزال الإشكال .

الإشكال الرابع : في قوله تعالى :(( كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ))[٢٢] .

فإن قيل : إن زكريا كان عالماً أن في قدرة الله ذلك قبل رؤية حال مريم فهلا سأل قبل ذلك ؟

قُلنا :(( قد يزداد الإنسان رغبةً في الشيء إذا عاينه وإن كان عالماً به قبله ))[٢٣] ، وبهذا أجاب الطبري عن هذا الإشكال، فأهل النفوس الزكية يعتبرون بما يرون ويسمعون فلذلك عمدَ إلى الدعاء بطلب الولد ... وقد كان في حسرة من عدم الولد كما حكى الله عنه في سورة مريم ، وأيضاً فقد كان حينئذٍ في مكان شهد فيه فَيضاً إلهياً ولم يزل أهل الخير يتوخون الأمكنة بما حدث فيها من خير والأزمنة الصالحة كذلك وما هي إلا كالذوات الصالحة في أنها محال تجليات رضا الله[٢٤] . إنها العفوية في الدعاء والشعور الذي يُحلّق بالنفس البشرية إلى أعلى مقامات السمو الروحي ، فتلهج بدعاء ربها طالبةً منه كل شيء في هذه اللحظة من التألق الروحي ، والملاحظ هنا اعتماد المفسرين على هذه النقطة تحديداً دون غيرها في إزالة هذا الإشكال .

الإشكال الخامس : في قوله تعالى :(( فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ ))[٢٥]. وقوله تعالى : (( إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا

---

[٢٢] سورة آل عمران : ٣٧ و ٣٨ و ٣٩ .

[٢٣] روح البيان – إسماعيل حقي البروسوي – دار الفكر – بيروت– د.ت : ٢ / ٣٠ .

[٢٤] التحرير والتنوير ٣ / ٩٠ .

[٢٥] سورة آل عمران : ٣٩ .

مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ))[٢٦].

في هاتين الآيتين الكريمتين ذكر الله ﷻ نبيين كريمين هما : يحيى عليه السلام ، وعيسى عليه السلام ومع ذكره نبوتهما ذكر أنهما من الصالحين فالإشكال على هذا يكون : لماذا ذكر الله ﷻ صفة الصلاح بعد ذكر النبوة وهل هناك نبيٌ غير صالحٍ ؟ وقد تصدى العلماء للإجابة عن هذا الإشكال ، وتنوعت إجاباتهم وكانت ما يأتي :

أولاً : : بالنسبة ليحيى عليه السلام قال البقاعي : (( ولما كان النبي لا يكون إلا صالحاً لم يعطف بل قال (مِنَ الصَّالِحِينَ) إعلاماً بمزية رتبة الصلاح واحترازاً من المتنبيين ))[٢٧] .

ثانياً : بالنسبة لعيسى عليه السلام ، قال الخازن : (( يعني أنه من العباد الصالحين مثل إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، وموسى ، وغيرهم من الأنبياء ، وإنما ختمَ أوصاف عيسى عليه السلام بكونه من الصالحين بعد ما وصفه بالأوصاف العظيمة ؛ لأن الصلاح من أعظم المراتب وأشرف المقامات لأنه لا يُسمى المرءُ صالحاً حتى يكون مُواظباً على النهج الأصلح والطريق الأكمل في جميع أقواله وأفعاله ، فلما وصفه الله تعالى بكونه وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين وأنه يُكلم الناس في المهد وكهلاً أردفه بقوله :( وَمِنَ الصَّالِحِينَ) ؛ ليكمل له أعلى الدرجات وأشرف المقامات ))[٢٨].

ثالثاً : قال الماتريدي : (( الصلاح يتحقق في كل نبي من جميع الوجوه وفي غيرهم لا يتحقق إلا بعضها فخصه بالذكر حتى ينقطع احتمال جواز النبوة في مطلق المؤمنين فكان تقييده باسم الصلاح مُفيداً ))[٢٩].

---

[٢٦] سورة آل عمران : ٤٥ و ٤٦ .

[٢٧] نظم الدرر – إبراهيم بن عمر البقاعي – وضع حواشيه عبد الرزاق المهدي – دار الكتب العلمية – بيروت – ط١- ١٩٩٥م : ٢ / ٧٧ .

[٢٨] تفسير الخازن – علي بن محمد الخازن – دار الفكر – بيروت – ١٩٧٩م : ١ / ٣٤٩ .

[٢٩] البحر المحيط – محمد بن يوسف الأندلسي – دار الفكر – بيروت – ط١٢ – ١٩٧٨م : ٢ / ٤٤٩ .

رابعاً : المقصود : (( من الصالحين في الدنيا والآخرة فيكون إشارة إلى الدوام على الإيمان والأمن من خوف الخاتمة ))[٣٠].

خامساً : قال الكرماني : (( خصَّ الأنبياء بذكر الصلاح ؛ لأنه لا يتخلل صلاحهم خلاف ذلك ))[٣١].

سادساً : قال البروسوي : (( والصلاح صفة تنتظم الخير كله ، والمراد به هنا ما فوق الصلاح الذي لابد منه في منصب النبوة البتة من أقاصي مراتبه ))[٣٢] ، وعليه مبنى دعاء سليمان عليه السلام (وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ)[٣٣]. والأرجح والله أعلم. ما قاله البروسوي .

إنه الغوص في المعنى وتتبع دلالاته وفق متاحات اللغة العربية المعطاء لإنتاج معنى يناسب مقام النبوة العظيم الذي يستمد عظمته من الله تعالى ، وبالوصول إلى المعنى المراد زال الإشكال ليكون المعنى الختامي متاحاً لفهم المتلقين في كل زمان ومكان .

الإشكال السادس : في قوله تعالى :(( قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ))[٣٤].

فإن قال قائل : وكيف قال زكريا وهو نبي الله :( رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ) وقد بشرته الملائكة بما بشرته به عن أمر الله إياها به ، أشك في صدقهم ؟ فذلك ما لا يجوز أن يوصف به أهل الإيمان بالله ، فكيف الأنبياء والمرسلون ، أم كان ذلك منه استنكاراً لقدرة ربه فذلك أعظم في البلية ؟ أثار الطبري هذا الإشكال وأجاب عنه بقوله : (( لما سمع النداء يعني زكريا لما سمع نداء الملائكة بالبشارة بيحيى جاءه الشيطان فقال له : يا زكريا إن الصوت الذي سمعت ليس هو من الله ، إنما هو من الشيطان

---

[٣٠] المصدر السابق .

[٣١] المصدر السابق .

[٣٢] روح البيان ٢ / ٣١ .

[٣٣] سورة النمل : ١٩ . تفسير الآلوسي (روح المعاني) – شهاب الدين محمود الآلوسي – دار إحياء التراث العربي – بيروت – د.ت : ٣/ ١٤٨ .

[٣٤] سورة آل عمران ٣ : ٤٠ .

يسخر بك ولو كان من الله أوحاه إليك كما يوحي إليك في غيره من الأمر فشك مكانه وقال :( أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ ) ذَكَر، يقول : ومن أين وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر ، فكان قوله ما قال من ذلك ومراجعته ربه فيما راجع فيه بقوله :( أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ ) للوسوسة التي خالطت قلبه من الشيطان حتى خيلت إليه أن النداء الذي سمعه كان نداء من غير الملائكة فقال :( رب أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ ) مُستثبتاً في أمره ))[٣٥]. واعترض على الجواب بأنه لا يجوز أن يشتبه على الأنبياء كلام الملائكة بكلام الشيطان[٣٦] ؛ لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، أصحاب قلوبٍ مُتصلةٍ بالله تعالى ، والوسوسة أبعد ما تكون عليهم سواء كانت في أمور الدنيا أو أمور الآخرة .

وذكر البغوي ما أجاب به الطبري عن هذا الإشكال ، وأضافَ جواباً آخر هو : (( أنه لم يشك في وعد الله ، إنما شكَّ في كيفيته ، أي : كيف ذلك أتجعلني وامرأتي شابين ؟ أم ترزقنا ولداً على الكبر منا ؟ أم ترزقني من امرأة أخرى ؟ قاله مُستفهماً لا شاكاً ))[٣٧]، وهو جواب (( حسن لائق بزكرياء عليه السلام ))[٣٨].

وأفاض أبو حيان في ذكر الأوجه المتعددة في الرد عن هذا الإشكال ومما ذكره من الأوجه من غير ما سبق ذكره :

١. إن هذا الاستعلام هو على سبيل الاستعظام لقدرة الله تعالى يحدث ذلك عند مُعاينة الآيات ، ويرجع معناه إلى ما قاله بعضهم : إن ذلك من شدة الفرح لكونه كالمدهوش عند حصول ما كان مُستبعداً له عادةً .

٢. إنما سأل لأنه كان عاجزاً عن الجماع ؛ لكبر سنه فسأل ربه هل يُقوِّيه على الجماع وامرأته على القبول على حال الكبر[٣٩].

---

[٣٥] تفسير الطبري ٣ / ٢٥٧ . ٢٥٨ .

[٣٦] تفسير الخازن ١ / ٣٤٥ .

[٣٧] تفسير البغوي ١ / ٤٣٧ .

[٣٨] المحرر الوجيز – عبد الحق بن عطية الأندلسي – تحقيق الرحالي الفاروق وآخرون – الدوحة – ط١- ١٩٧٧م : ٣ / ١٠٥ . ١٠٦ .

[٣٩] البحر المحيط ٢ / ٤٤٩ . ٤٥٠ .

وأولى الأجوبة بالقبول الجواب الأول ممَّا ذكره أبو حيان . والله أعلم . والملاحظ في استقراء أقوال المفسرين حول إزالة هذا الإشكال أنها تنطلق من منطلق عقائدي بحت ، فما لا يليق بالأنبياء عليهم السلام استبعدوه من معاني هذه الألفاظ، وحاولوا جاهدين تفسير ذلك وإظهار المعنى الذي يليق بمقام النبوة دون التكهن بدلالات أخرى لا تليق بهذا المقام الجليل، وهذا يدل على عمق إنتاج الشرعي الموافق للدلالة اللغوية لدى المفسرين رحمهم الله تعالى .

الإشكال السابع : في قوله تعالى :(( ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ))[٤٠] .

فإن قيل : ليس هناك ضرورةً في ذكر نفي حضوره ﷺ في ذلك الوقت ؛ لأن ذلك معلومٌ .

قيل : (( وإنما نفى حضوره عندهم مع كونه معلوماً ؛ لأنهم أنكروا الوحي فلو كان ذلك الإنكار صحيحاً لم يبقَ طريق للعلم به إلا المشاهدة والحضور وهم لا يدعون ذلك فثبت كونه وحياً مع تسليمهم أنه ليس ممن يقرأ التوراة ولا ممن يُلابس أهلها ))[٤١] ، وهذا من قبيل إلجام الخصم الحجة ، والعجيب أن يُفصّل التعبير القرآني القول في قصة كفالة مريم عليها السلام بعد أن نفى حضوره صلى الله عليه وسلم لهذه الأحداث ليحصل اليقين لدى المنكرين للوحي الإلهي بأن هذه التفاصيل لا يمكن أن يكون مصدرها غير الله تعالى .

الإشكال الثامن : في قوله تعالى :(( وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ))[٤٢].

فإن قيل : ما معنى قوله (كَهْلاً) ؟ والكلام من الكهل لا يكون عجباً !

قيل :(( إنما أخبر الله ﷻ عباده بذلك من أمر المسيح وأنه كذلك كان وإن كان الغالب من أمر الناس أنهم يتكلمون كهولاً وشيوخاً احتجاجاً به على القائلين فيه من أهل الكفر بالله من النصارى بالباطل وأنه كان

---

[٤٠] سورة آل عمران : ٤٤ .

[٤١] فتح القدير – محمد بن علي الشوكاني – تحقيق د. عبد الرحمن عميرة – دار الوفاء – المنصورة – ط٢ – ١٩٩٧م : ١ / ٥٦١ .

[٤٢] سورة آل عمران : ٤٦ .

في معاناة أشياء مولوداً طفلا ثم كهلاً يتقلب في الأحداث ويتغير بمرور الأزمنة عليه والأيام من صغر إلى كبر ومن حال إلى حال وأنه لو كان كما قال الملحدون فيه كان ذلك غير جائز عليه فكذب بذلك ما قاله الوفد من أهل نجران الذين حاجّوا رسول الله ﷺ فيه واحتج به عليهم لنبيه محمد ﷺ وأعلمهم أنه كان كسائر بني آدم إلا ما خصّه الله به من الكرامة التي أبانه بها منهم ))[٤٣].

أما السمرقندي فقد أجاب عن هذا الإشكال بقوله :(( المراد منه كلام الحكمة والعبرة ))[٤٤]، وأجاب الماوردي عن هذا الإشكال بقوله :(( ففيه قولان :أحدهما : أنه يكلمهم كهلاً بالوحي الذي يأتيه من الله تعالى ، الثاني : أنه يتكلم صغيراً في المهد كلام الكهل في السن ))[٤٥].

وقد بيّن الزمخشري المعنى هنا فقال : (( معناه : يكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوتٍ بين حال الطفولة وحال الكهولة التي يستحكم فيها العقل ويستنبأ فيها الأنبياء ))[٤٦].

ونقل ابن عطية عن ابن زيد أن (( فائدة قوله:(وَكَهْلاً) الإخبار بنزوله عند قتله الدجّال كهلاً ))[٤٧] ، ونقل الإمام القرطبي عن المهدوي أن (( فائدة الآية : أنه أعلمهم أن عيسى عليه السلام يكلمهم في المهد ويعيش إلى أن يكلمهم كهلاً ، إذ كانت العادة أن من تكلم في المهد لم يعش ))[٤٨] ، وكل القراءات لهذا الإشكال من لدن المفسرين كانت من الروعة بمكان ، فقد تناولت كل الجوانب ولم تدع مقالاً لقائل مثبتة من خلال تنوعها المعنى الدقيق لإزالة هذا الإشكال ، لا سيما بعد إحاطتهم بمعتقدات النصارى وحوادث آخر الزمان واستعمالها في حل هذا الإشكال القائم .

---

[٤٣] تفسير الطبري ٣ / ٢٧٢ .

[٤٤] تفسير السمرقندي ١ / ٢٦٨ .

[٤٥] تفسير الماوردي ١ / ٣٢٤ .

[٤٦] تفسير الكشاف ١ / ٤٣٠ . ٤٣١ .

[٤٧] المحرر الوجيز ٣ / ١٢٢ .

[٤٨] تفسير القرطبي ٢ / ١٣٣٢ .

الإشكال التاسع : في قوله تعالى :(( إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ))[٤٩].

فإن قلت : كيف شبه به وقد وجد هو بغير أب ووجد آدم بغير أب وأم ؟

قلت : ((هو مثيله في أحد الطرفين ، فلا يمنع اختصاصه دونه بالطرف الآخر من تشبيهه به ؛ لأن المماثلة مشاركة في بعض الأوصاف ولأنه شبه به في أنه وجد وجوداً خارجاً عن العادة المستمرة وهما في ذلك نظيران ، ولأن الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرق للعادة من الوجود من غير أب فشبه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه ، وعن بعض العلماء : أنه أُسرَ بالروم فقال لهم : لِمَ تعبدون عيسى ؟
قالوا : لأنه لا أب له ، قال :فآدم أولى لأنه لا أبوين له ))[٥٠]، وإلى ذلك ذهب الخازن[٥١]، وأبو حيان[٥٢]، والبيضاوي[٥٣]، والمحلي[٥٤] ، والآلوسي[٥٥] .

إن ولادة عيسى عجيبة حقاً بالقياس إلى مألوف البشر ، ولكن أيةُ غرابةٍ فيها حين تُقاس إلى خلق آدم أبي البشر ؟ وأهل الكتاب الذين كانوا يُناظرون ويُجادلون حول عيسى . بسبب مولده . ويصوغون حوله الأوهام والأساطير بسبب أنه نشأ من غير أب ، أهل الكتاب هؤلاء كانوا يُقرون بنشأة آدم من التراب وأن النفخة من روح الله هي التي جعلت منه هذا الكائن الإنساني دون أن يصوغوا حول آدم الأساطير التي صاغوها حول عيسى ودون أن يقولوا عن آدم : إن له طبيعة لاهوتية ، على حين أن العنصر الذي به صار

---

[٤٩] سورة آل عمران : ٥٩ .

[٥٠] تفسير الكشاف ١ / ٤٣٣ .

[٥١] تفسير الخازن ١ / ٣٥٩ .

[٥٢] البحر المحيط ٢ / ٤٧٧ .

[٥٣] تفسير البيضاوي ( أنوار التنزيل) – عبد الله بن عمر البيضاوي – دار الكتب العلمية – بيروت – ط١ – ١٩٨٨م : ١ / ١٦٢ .

[٥٤] تفسير الجلالين – محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين السيوطي – مطبوع بهامش القرآن الكريم – دار المعرفة – بيروت – ١٩٨٢م : ٧٦ .

[٥٥] تفسير الآلوسي ٣ / ١٨٦ .

آدم إنساناً هو ذاته العنصر الذي به ولد عيسى من غير أب : عنصر النفخة الإلهية في هذا وذاك وإن هي إلا الكلمة (كن) تنشيء ما تراد له النشأة (فيكون)[٥٦].

فيالروعة هذا التأويل في قراءة هذا الإشكال وإلزام الخصم الحجة وإقامة البرهان عليه مفندةً معتقده الباطل ، وذلك ممن خلال إيضاح الصورتين الغريبة والأغرب لتتم مقارنتهما بعقلانية صارمة ينتج عنها ظهور الحق واضحاً جلياً ، وهذا هو مراد التعبير القرآني ، وبذلك يزول الإشكال ، وأكون قد ختمت هذه الإطلالة السريعة في هذا المبحث حول بعض التعبيرات المشكلة من حيث المعنى التي حوتها بداية هذه السورة الكريمة

## المبحث الثاني : الفنون البلاغية :

إنَّ بلاغة القرآن معجزة وخارقة نبعت من جزالة نظم القرآن وحُسن متانته ومن بداعة أساليبه وجودتها ومن براعة بيانه وتفوقه وصفوته ومن قوة معانيه وصدقها ومن فصاحة ألفاظه وسلاستها(٥٧) .

وسأتكلم في هذا المبحث عن بعض الفنون البلاغية التي تضمنتها بداية هذه السورة الكريمة ، وذلك من خلال تقسيم هذا المبحث على مطالب عدة :

### المطلب الأول : أسلوب التكرار[٥٨] :

قال الإمام النورسي[٥٩] وهو يتحدث عن حكمة التكرار الوارد في كلمات وجمل وآيات القرآن الكريم :(( فإن تكرار تلك الجمل والآيات عند بيان أمثال هذه الأمور العظيمة الهائلة لا يُعدُّ نقصاً في البلاغة قط بل هو إعجاز في غاية الروعة والبيان وبلاغة في غاية العلو والرفعة ))[٦٠] .

---

[٥٦] في ظلال القرآن ١ / ٥٩٨ .

(٥٧) المعجزات القرآنية – سعيد النورسي – ترجمة إحسان الصالحي – ط١ – بغداد – ١٩٩٠م : ١٣ .

(٥٨) هو دلالة اللفظ على المعنى مردداً ، وهو أبلغ من التأكيد ، وهو من محاسن الفصاحة. ينظر : الإتقان – جلال الدين السيوطي – دار الكتب العلمية – بيروت – ط١ – ١٩٧٨م : ٢/ ٦٦ .

[٥٩] هو الإمام سعيد بن صوفي ميرزا بن علي من عشيرة اسباريت ، ولد في قرية " نُورْس " شرقي الأناضول سنة (١٨٧٣م) ، لُقِّب بـ "بديع الزمان" ؛ لنبوغه وذكائه ، له تصانيف كثيرة منها: "حقائق الإيمان" و "رسالة الحشر" وغيرهما ، توفي في ليلة القدر سنة (١٩٦٠م)، ودُفن في

**ومن تكرار الجمل** الوارد في هذه الآيات قوله تعالى : (( وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ ))[٦١].

فقد كرَّر الله تعالى في هذه الآية الكريمة (بإذن الله) مرتين وسبب ذلك بيَّنه الزمخشري فقال :(( وكرَّر (بإذن الله) دفعاً لوهم من توهم فيه اللاهوتية ))[٦٢]، فـ (( الله هو الذي خلق الموت والحياة فهو يخلق الحياة في ذلك الجسم بقدرته عند نفخ عيسى عليه السلام فيه على سبيل إظهار المعجزات ))[٦٣]. إنها القراءة عميقة الدلالة لإنتاج المعنى الشرعي واللغوي في آن واحد ، وهذه هي القيم الجمالية في فهم الفنون البلاغية ، فلم ترصد بمعزل عن السياق العام الذي وردت فيه ، ولم تقرأ مجردة عن التأثير في المتلقي .

وكذلك الحال مع قوله تعالى :(( لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ))[٦٤] .

ففي هذه الآية الكريمة ذكر الله عز وجل التحذير منه سبحانه فقال : (وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ) ، وبعد هذه الآية بآية واحدة كرَّر التحذير منه فقال :(( يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ))[٦٥].

---

"اولو جامع" ثم أُخرج جثمانه بأمر السلطان ودُفن في مكان مجهول . ينظر : سيرة ذاتية – سعيد النورسي – ترجمة وإعداد إحسان الصالحي – ط١ – ١٩٩٨م : ٣٥ وما بعدها .

[٦٠] المعجزات القرآنية : ١٨٦ .

[٦١] سورة آل عمران : ٤٩ .

[٦٢] تفسير الكشاف ١ / ٤٣١ .

[٦٣] روح البيان ٢ / ٣٧ .

[٦٤] سورة آل عمران : ٢٨ .

[٦٥] سورة آل عمران : ٣٠ .

قال الزمخشري مبيناً سبب هذا التكرار :(( وكرَّر قوله (ويحذركم الله نفسه) ليكون على بال منهم لا يغفلون عنه ))[٦٦]، وإلى ذلك ذهب الخازن[٦٧] ، وأبو حيان[٦٨] ، والبيضاوي[٦٩] ، والمحلي[٧٠] ، والبروسوي[٧١]، والشوكاني[٧٢]، والآلوسي[٧٣]. أما الرازي فقد اعتبر هذا التكرار لتأكيد الوعيد[٧٤]

وقال ابن عاشور :(( يجوز أن يكون تكريراً للتحذير الأول لزيادة التأكيد ، ويجوز أن يكون الأول تحذيراً من موالاة الكافرين والثاني تحذيراً من أن يجدوا يوم القيامة ما عملوا من سوءٍ محضراً ))[٧٥]، وأولى الأجوبة بالقبول ما ذهب إليه الزمخشري ومن معه من المفسرين ، وذلك لأنه يدخل تحت قاعدة "وقد أعذر من أنذر" فلا يأتوا يوم القيامة قائلين ما جاءنا من نذير ، فقد أنذرهم الله بنفسه وهم من يتحمل وبال النكوص والتكذيب .

أما قوله تعالى :(( شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ))[٧٦] فقد تكرر فيه (لا إله إلا الله) وأجاب الزمخشري عن ذلك بقوله : (( ذكره أولاً للدلالة على اختصاصه بالوحدانية وأنه لا إله إلا تلك الذات المتميزة ، ثم ذكره ثانياً بعد ما قرن بإثبات الوحدانية إثبات العدل للدلالة على اختصاصه بالأمرين كأنه قال : لا إله إلا هذا الموصوف بالصفتين،ولذلك قرن به قوله

---

[٦٦] تفسير الكشاف ١ / ٤٢٣ .

[٦٧] تفسير الخازن ١ / ٣٣٧ .

[٦٨] البحر المحيط ٢ / ٤٣٠ .

[٦٩] تفسير البيضاوي ١ / ١٥٥ .

[٧٠] تفسير الجلالين : ٧٢ .

[٧١] روح البيان ٢ / ٢١ .

[٧٢] فتح القدير ١ / ٥٥٢ .

[٧٣] تفسير الآلوسي ٣ / ١٤١ .

[٧٤] التفسير الكبير – محمد بن إدريس الرازي– تحقيق أسعد محمد الطيب – مكتبة نزار الباز – الرياض – ط٢ – ١٩٩٩م : ٨ / ١٧ .

[٧٥] التحرير والتنوير ٣ / ٧٨ .

[٧٦] سورة آل عمران : ١٨ .

:(العزيز الحكيم) لتضمنهما معنى الوحدانية والعدل ))[٧٧] ، وإلى ذلك ذهب أبو حيان[٧٨] ، والبيضاوي[٧٩] ، والآلوسي[٨٠] .

أما ابن الجوزي فقد نقل عن جعفر الصادق ﷺ قوله :(( وإنما كرَّر (لا إله إلا هو) ؛ لأن الأولى وصف وتوحيد ، والثانية رسم وتعليم ، أي : قولوا :(لا إله إلا الله) ))[٨١].

وقال القرطبي:(( كرَّر؛لأن الأولى حلت محل الدعوى ،والشهادة الثانية حلت محل الحكم ))[٨٢] ، وقال الخازن :(( إنما كرَّره للتأكيد ))[٨٣]. وإلى ذلك ذهب المحلي[٨٤] ، والبروسوي[٨٥] ، والشوكاني[٨٦] ، وقال الثعالبي : (( وتكرَّرت (لا إله إلا الله) هنا ، وفائدة هذا التكرار الإعلام بأن المسلم يجب أن يكون أبداً في تكرير هذه الكلمة فإن أشرف كلمة يذكرها الإنسان هي هذه الكلمة ، وإذا كان في أكثر الأوقات مشتغلاً بها وبتكريرها كان مشتغلاً بأعظم أنواع العبادات ، فكان من التكرار في هذه الآية حضٌّ العباد على تكريرها ))[٨٧]، ولا أرى ترجيحاً بين هذه الأقوال فكلها تضمنت معنى جميلاً لفهم هذا التكرار وأرشدت إلى أمر مهم في حياة المتلقين مدى الأزمان ليأخذوه على محمل الجد في حياتهم اليومية ولا يغفلوا عنه .

---

[٧٧] تفسير الكشاف ١ / ٤١٩ .

[٧٨] البحر المحيط ٢ / ٣٨٠ . ٣٨١ .

[٧٩] تفسير البيضاوي ١ / ١٥٢ .

[٨٠] تفسير الآلوسي ٣ / ٧٩ .

[٨١] زاد المسير– عبد الرحمن بن الجوزي – بيروت – ط٣ – ١٤٠٤هـ : ١ / ٣٦٢ .

[٨٢] تفسير القرطبي ٢ / ١٢٨٥ .

[٨٣] تفسير الخازن ١ / ٣٢٩ .

[٨٤] تفسير الجلالين : ٦٩ .

[٨٥] روح البيان ٢ / ١٢ .

[٨٦] فتح القدير ١ / ٥٤٣ .

[٨٧] تفسير الثعالبي (الجواهر الحسان) – عبد الرحمن بن محمد الثعالبي المالكي – تحقيق علي محمد وآخرون – دار إحياء التراث العربي– بيروت – ط١– ١٩٩٧م : ٢ / ٢١ .

**ومن تكرار الاسم** قوله تعالى :((فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ))[٨٨]. ففي هذه الآية الكريمة تكررت لفظة (ابتغاء) مرتين وسبب ذلك . والله أعلم . هو أن هذا الصنف من الناس يتكلف العمل الذي يصعب عليه إنجازه فهو يبغي الوصول إلى فتنة الناس بتأويله هذا ، ويبذل لأجل ذلك الجهد الكبير علَّه يصل إلى بُغيته وما درى أنه لا يعلم ذلك إلا عالم الغيب والشهادة ، ولكنه غفل عن ذلك لدخول الزيغ إلى قلبه (( والابتغاء افتعال: تكلف البغي وهو شدة الطلب ))[٨٩] ، وتكررت أيضاً لفظة (تأويله) مرتين وسبب هذا التكرار بيَّنه أبو حيان فقال : (( كرَّر لاختلاف التأويلين ، أو للتفخيم لشأن التأويل ))[٩٠]. إنها القدرة الإلهية المعجزة للبشر جميعاً في كل زمان ومكان ، ومع ذلك فقد يظهر البعض محاولين إثارة فتنة بخوضهم في ما لا طاقة لهم به ، ولكنهم سرعان ما ينقلبوا خاسرين ، ولذلك جاء التكرار هنا ليثبت وصف فعلتهم الشنيعة فتكون حاضرة في الأذهان حذراً منها .

وكذلك الحال مع قوله تعالى :((رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ))[٩١]. وقوله تعالى :((الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ))[٩٢]. وقوله تعالى :((رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ))[٩٣]. فقد تكرَّرت في هذه الآيات الكريمات لفظة (ربنا) والتي تمثل الدعاء والانكسار لله ﷻ وجاء تكرار هذا (( الدعاء تنبيهاً على ملازمته وتحذيراً من الغفلة عنه لما فيه من إظهار الافتقار ))[٩٤] ، فهذا الدعاء يمثل (( موسيقى الدعاء المتموجة الرخية الطويلة الخاشعة ))[٩٥]المنيبة لله تعالى التي حملت همومها وأعباء حياتها ووضعتها عند باب العظيم

---

[٨٨] سورة آل عمران : ٧ .

[٨٩] نظم الدرر ٢ / ٢٤ .

[٩٠] البحر المحيط ٢ / ٣٩١ .

[٩١] سورة آل عمران : ٨ .

[٩٢] سورة آل عمران : ١٦ .

[٩٣] سورة آل عمران : ٥٣ .

[٩٤] البحر المحيط ٢ / ٣٩١ .

[٩٥] التصوير الفني في القرآن – سيد قطب – دار الشروق – ط١١ – ١٩٨٩م : ١١٢ .

علَّه ينظر إليها بعين عطفه ورحمته ، فلم يأتِ التكرار كيفما اتفق ، وإنما جاء ليعطي بعداً جمالياً وقيمة بلاغية وأثراً ساحراً للنص القرآني ليفيد منه المتلقي على مر العصور .

**أما تكرار الفعل** فمنه قوله تعالى :(( وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ))[٩٦] فقد كرر الله ﷻ في هذه الآية الكريمة (اصطفاك) مرتين **وسبب ذلك بيَّنه العلماء فقال** الماوردي:(( فيه قولان : أحدهما : أنه تأكيد للاصطفاء الأول بالتكرار والثاني : أن الاصطفاء الأول للعبادة ، والاصطفاء الثاني لولادة المسيح))[٩٧].

وإلى ذلك ذهب ابن الجوزي وأضاف وجهين آخرين هما:((والثالث : أن الاصطفاء الأول اختيار مبهم وعموم يدخل فيه صوالح من النساء ، فأعاد الاصطفاء لتفضيلها على نساء العالمين . والرابع : أنه لما أطلق الاصطفاء الأول أبان بالثاني أنها مصطفاة على النساء دون الرجال))[٩٨].

أما العكبري فقد قال:(( وكرَّر (اصطفى) إما توكيداً وإما ليبين من اصطفاها عليهم ))[٩٩]، وإلى ذلك ذهب الآلوسي[١٠٠] ، وخالفه القرطبي فقال:(( وكرَّر (الاصطفاء) ؛ لأن معنى الأول الاصطفاء لعبادته ، ومعنى الثاني لولادة عيسى ))[١٠١] ، وقال الخازن في سبب هذا التكرار : (( فإن قلت هل فرَّق بين الاصطفاء الأول والثاني ؟ قلت : ذكر العلماء في معناهما وجوهاً يتحصل منها الفرق فقيل في معنى الاصطفاء الأول أن الله تعالى اختار مريم وقبلها منذورة محررة ولم تحرر قبلها أنثى ولم يجعل ذلك لغيرها من

---

[٩٦] سورة آل عمران : ٤٢ .

[٩٧] تفسير الماوردي ١ / ٣٢٢ .

[٩٨] زاد المسير ١ / ٣٨٧ .

[٩٩] إملاء ما منَّ به الرحمن – عبد الله بن الحسين العكبري – دار الكتب العلمية – بيروت – ط١ – ١٩٧٩م : ١ / ١٣٣ .

[١٠٠] تفسير الآلوسي ٣ / ١٥٥ .

[١٠١] تفسير القرطبي ٢ / ١٣٢٤ . ١٣٢٥ .

النساء وأن الله بعث إليها رزقها من عنده وكفَّلها زكريا، ومعنى الثاني : أن الله تعالى وهب لها عيسى من غير أب ، وأسمعها كلام الملائكة ولم يحصل ذلك لغيرها من النساء ))[١٠٢].

إن هذا الإشعار بالاصطفاء لم يكن إلا كشفاً نوعياً للشخصية التي سيتحقق الحدث على يدها وتأكيداً على أن الحدث تجسيد لرسالة السماء لأن من اختارهم الله لحمل رسالته طلائع الموكب الإيماني في شتى مراحله المتصلة على مدار الأجيال والقرون[١٠٣] ، وهذا هو المعنى الدقيق في فهم التكرار بكل ما يحمل في طياته من معانٍ ودلالات ، وبهذا أختم حديثي عن التكرار في بداية هذه السورة الكريمة .

## المطلب الثاني : الاستعارة[١٠٤] :

الألفاظ المستعارة ألفاظ موحية ؛ لأنها أصدق أداة تجعل القاريء يحس بالمعنى أكمل إحساس وأوفاه ، وتصور المنظر للعين ، وتنقل الصورة للأذان ، وتجعل الأمر المعنوي ملموساً محساً[١٠٥].

ومن الاستعارة الواردة في هذه الآيات قوله تعالى :((هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)) [١٠٦] فقد وردت في هذه الآية الكريمة استعارتان الأولى في قوله تعالى :(هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ) قال عنها الشريف الرضي :((هذه استعارة والمراد بها أن هذه الآيات جماع الكتاب وأصله فهي بمنزلة الأم وكأن سائر الكتاب

---

[١٠٢] تفسير الخازن ١ / ٣٤٦ .

[١٠٣] ينظر : في ظلال القرآن ١/ ٥٧٦ ، ودلالة الأنساق البنائية في التركيب القرآني – عامر عبد المحسن السعد – أطروحة دكتوراه مقدمة إلى كلية الآداب – جامعة البصرة – ١٩٩٥م : ٩٠ .

[١٠٤] هي نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض ، وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه ، أو تأكيده والمبالغة فيه ، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ ، أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه . الصناعتين – الحسن بن عبد الله العسكري – تحقيق محمد علي البجاوي وآخرون – المكتبة العصرية – بيروت – ١٩٨٦م : ٢٦٨ .

[١٠٥] التعبير الفني في القرآن : ١٩٧ .

[١٠٦] سورة آل عمران : ٧ .

يتبعها و يتعلق بها كما يتبع الولد آثار أمه ويفزع إليها في مُهمه))[١٠٧]، ولهذه الاستعارة دلالة توحي للمتلقي عبر العصور بضرورة إفادته من هذه الآيات الموصوفة بأنها أم الكتاب وعدم الالتفات إلى الآيات المتشابه طلباً للفتنة .

والاستعارة الثانية في قوله تعالى :(وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) قال عنها الشريف الرضي أيضاً :((هذه استعارة والمراد بها المتمكنون في العلم تشبيهاً برسوخ الشيء الثقيل في الأرض الخوَّانة وهو أبلغ من قوله "والثابتون في العلم"))[١٠٨]، فمن هذبه العلم وتأدب بأدبه يستسلم للقدرة الربانية والإعجاز القرآني ، فلا يبحث عما لا يستطيعه ، فقد رسخت قدمه في أرض العلم اليقين .

وكذلك الحال مع قوله تعالى :((إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ))[١٠٩] فقد ورد في هذه الآية الكريمة قوله تعالى :(فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) والبشارة كما هو معروف تستعمل في الخير واستعملت هنا في الشر وهذا الاستعمال (( مجازي قصد به التهكم ، فالمعنى أنذرهم بعذاب أليم ؛ لأن العذاب لا يبشر به ، فاستعار التبشير للإنذار بعد أن نزل التضاد منزلة التناسب تهكماً ؛ لذا كان التعبير بلفظ "بشرهم" أبلغ ؛ لأنه أشد لذعاً وإيلاماً من لفظ "أنذرهم" الحقيقي ))[١١٠]. وهذا قول الرازي[١١١]، والخازن[١١٢] ، وأبو حيان[١١٣] ، والمحلي[١١٤]، وهو بمثابة التأديب النفسي لهؤلاء المعرضين علّهم يرعوون .

---

[١٠٧] تلخيص البيان – الشريف الرضي – تحقيق محمد عبد الغني – دار إحياء الكتب العربية – القاهرة – ط١ – ١٩٥٥م : ١٢٢ .

[١٠٨] المصدر السابق .

[١٠٩] سورة آل عمران : ٢١ .

[١١٠] الجدول – محمود صافي – د.ت : ٢ / ١٣٨ .

[١١١] التفسير الكبير ٧ / ٢١٥ .

[١١٢] تفسير الخازن ١ / ٣٣٢ .

[١١٣] البحر المحيط ٢ / ٤١٤ .

[١١٤] تفسير الجلالين : ٧٠ .

أما قوله تعالى :((تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ))[١١٥] فنلحظ فيه استعارة في :(تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ) ، وقد قال عنها الشريف الرضي :((وهذه استعارة وهي عبارة عجيبة عن إدخال هذا على هذا وهذا على هذا ، والمعنى أن ما ينقصه من النهار يزيده في الليل وما ينقصه من الليل يزيده في النهار ، ولفظ "الإيلاج" أبلغ ؛ لأنه يفيد إدخال كل واحد منهما في الآخر بلطيف الممازجة وشديد الملابسة ))[١١٦] ، وإلى ذلك ذهب الآلوسي[١١٧] ، وفي هذه الاستعارة نلمح الإشارة الربانية الإعجازية للبشر أجمعين بتصوير تداخل اليوم بليله ونهاره بهذه الهيئة الفريدة ، والتي رسمت التنقل بمنتهى الهدوء فلا تحس نفسك خارجاً من ليل إلا وأنت داخل في نهار وكذلك العكس .

وفي قوله تعالى :(وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ) استعارة تصريحية (( إذا أراد بالحي والميت المسلم والكافر حيث قيل في تفسيرهذه الآية : تخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن فإذا أراد هذا المعنى كان في الآية استعارة تصريحية ، وإذا أراد النطفة والبيضة كان الكلام جارياً على جانب الحقيقة لا على جانب المجاز))[١١٨]، وإذا قلنا أن في الآية الكريمة استعارة استندنا إلى أقوال أهل العلم :

إذ قال الحسن :((معناه : يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، وروي نحو هذا القول عن سلمان الفارسي ﷺ[١١٩] ، وإذا قلنا بعدم وجود استعارة في الآية الكريمة فذلك مذهب جمهور كثير من العلماء، ومن أقوالهم في تفسير هذا الأمر ما يأتي : قال ابن مسعود ﷺ :هي النطفة تخرج من الرجل وهي ميتة وهو حي ، ويخرج الرجل منها وهي ميتة ، وقال عكرمة :هو إخراج الدجاجة وهي حية من البيضة وهي ميتة ،

[١١٥] سورة آل عمران : ٢٧ .

[١١٦] تلخيص البيان : ١٢٣ .

[١١٧] تفسير الآلوسي ٣ / ١١٥ .

[١١٨] الجدول ٢ / ١٤٨ ، وإعراب القرآن – محيي الدين درويش – دار الإرشاد للشؤون الجامعية – سوريا – ط٨ – ٢٠٠١م : ١ / ٤١٩ .

[١١٩] تفسير الثعالبي ٢ / ٢٨ .

وإخراج البيضة وهي ميتة من الدجاجة وهي حية[١٢٠]، وسواء أكان فيها استعارة أم لا فإن فيها من الضِلال الموحية الشيء الكثير فقد أوحت للمتلقي بتجدد الحياة بكل ما فيها من تحولات .

أما قوله تعالى :((فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُون))[١٢١] فقد قال عنه أبو حيان :(( الاستعارة في "أحس" إذ لا يحس إلا ما كان متجسداً والكفر ليس بمحسوس وإنما يعلم ويفطن به ولا يدرك بالحس إلا إن كان "أحس" بمعنى "رأى" أو بمعنى "سمع" منهم كلمة الكفر ، فيكون "أحس" لا استعارة فيه إذ يكون أدرك ذلك منهم بحاسة البصر أو بحاسة الأذن وتسمية الشيء باسم ثمرته ))[١٢٢]، وقال البروسوي :

(( "أحس" استعارة للعلم اليقيني الذي لا شبهة فيه ))[١٢٣]، وأصل الإحساس الإدراك بإحدى الحواس الخمس الظاهرة وقد استعير هنا استعارة تبعية للعلم بلا شبهة ، وقيل : إنه مجاز مرسل عن ذلك من باب ذكر الملزوم وإرادة اللازم والداعي لذلك أن الكفر مما لا يحس[١٢٤] ، والإيحاء في هذه الاستعارة ظاهر بارز إذ بوادر الكفر ظاهرة بارزة لا تخفى على نبي كريم كعيسى عليه السلام ، وبظهور تزعزع إيمانهم واجههم عيسى عليه السلام بقوله :( من أنصاري إلى الله ؟) ليتميز الصف المؤمن من غيره ، وهذه هي اللمحات الجمالية في هذه الاستعارة .

وكذلك الحال مع قوله تعالى :((فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ

[١٢٠] ينظر أقوالهم في تفسير الثعالبي ٢ / ٢٩ .

[١٢١] سورة آل عمران : ٥٢ .

[١٢٢] البحر المحيط ٢ / ٤٧٢ .

[١٢٣] روح البيان ٢ / ٣٩ .

[١٢٤] تفسير الآلوسي ٣ / ١٧٤ .

يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ))[١٢٥]. قال الصابوني :((شبهها في نموها وترعرعها بالزرع الذي ينمو شيئاً فشيئاً ، والكلام مجاز عن تربيتها بما يصلحها في جميع أحوالها بطريق الاستعارة التبعية))[١٢٦].

وسبقه إلى هذا القول الآلوسي[١٢٧] ، وإليه ذهب ابن عاشور[١٢٨]. إنها رعاية حال المخاطبين بما ترسمه هذه الاستعارة من نمو للإنسان مشابه لما يمر به النبات من مراحل نموه لتوحي بالبهجة حين البلوغ ووصول المنتظر إلى الصورة الحسنى ، وبهذا أختم الحديث عن الاستعارة في بداية هذه السورة الكريمة .

## المطلب الثالث : أسلوب التقديم[١٢٩] :

إن فن التقديم فنٌ رفيع يعرفه أهل البصر بالتعبير الذين أوتوا حظاً من معرفة مواقع الكلام ... وقد بلغ القرآن الكريم في هذا الفن الذروة في وضع الكلمات الوضع الذي تستحقه في التعبير بحيث تستقر في مكانها المناسب ، ولم يكتفِ القرآن الكريم في وضع اللفظة بمراعاة السياق الذي وردت فيه بل راعى جميع المواضع التي وردت فيها اللفظة ونظر إليها نظرة واحدة شاملة في القرآن الكريم كله ، فنرى التعبير متسقاً متناسقاً مع غيره من التعبيرات كأنه لوحة فنية واحدة مكتملة متكاملة[١٣٠] .

وأول ما سأرصده هو **تقديم اسم على اسم آخر** فقد ورد منه قوله تعالى :((فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ))[١٣١] ففي هذه الآية الكريمة قدَّم الله تعالى (الذكر) على (الأنثى) وأجاب ابن عطية عن

---

[١٢٥] سورة آل عمران : ٣٧ .

[١٢٦] صفوة التفاسير – محمد علي الصابوني – دار الصابوني – القاهرة – ط٩ – د.ت : ١ / ٢٠٠ .

[١٢٧] تفسير الآلوسي ٣ / ١٣٩ .

[١٢٨] التحرير والتنوير ٣ / ٨٨ .

[١٢٩] ) ويمكننا تقسيم أحوال التقديم على قسمين : الأول : تقديم اللفظ على عامله ، نحو : بمحمدٍ اقتديتُ .الثاني : تقديم الألفاظ بعضها على بعض في غير العامل ، نحو : أعرتُ خالداً كتابي . التعبير القرآني : ٤٨ .

[١٣٠] التعبير القرآني : ٥١ .

[١٣١] سورة آل عمران : ٣٦ .

ذلك فقال :(( وبدأت بذكر الأهم في نفسها ، وإلا فسياق قصتها يقتضي أن تقول : وليست الأنثى كالذكر ، فتضع حرف النفي مع الشيء الذي عندها وانتفت عنه صفات الكمال للغرض المراد ))[١٣٢] ، وإلى ذلك ذهب الخازن[١٣٣] ، والثعالبي[١٣٤] ، وابن عاشور[١٣٥] ، فما أجمله من استقراء من لدن المفسرين لهذا التقديم الذي ينبؤ عن عمق في المعنى النفسي الذي كان يخالج امرأة عمران ومنه انطلقوا لتفسير وبيان الأثر الجمالي لهذا التقديم .

أما قوله تعالى : ((نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ))[١٣٦] فنلحظ فيه تقديم (الكتاب) على (التوراة والإنجيل) ، والكتاب . أي القرآن . نزل بعد التوراة والإنجيل فما السر في هذا التقديم ؟ السر في ذلك أن الله تعالى (( قدّم القرآن لشرفه وعظم ثوابه ونسخه لما تقدم وبقائه واستمرار حكمه إلى آخر الزمان ))[١٣٧] ، فهو الدستور الختامي للبشرية جمعاء ، وهو حبل الله المتين من تمسك به فقد رشد ومن تركه فقد غوى ، وفي ذلك إشارة واضحة إلى ديمومته وكونه خاتمة الرسالات لبني البشر أجمعين .

وفي قوله تعالى :((إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ))[١٣٨] قدَّم الله تعالى (( الأرض على السماء وإن كانت السماء أكثر في العوالم وأكبر في الأجرام وأكبر في الدلائل والآيات وأجزل في الفضائل لطهارة سكانها بخلاف سكان الأرض ؛ ليعلمهم اطلاعه على خفايا أمورهم فاهتم بتقدير محلهم عسى أن يزدجروا عن قبيح أفعالهم لأنه إذا نبَّه على أن الله لا يخفى عليه شيء من أمره استحيا منه

---

[١٣٢] المحرر الوجيز ٣ / ٨٨ .

[١٣٣] تفسير الخازن ١ / ٣٤٠ .

[١٣٤] تفسير الثعالبي ٢ / ٣٤ .

[١٣٥] التحرير والتنوير ٣ / ٨٧ .

[١٣٦] سورة آل عمران : ٤ .

[١٣٧] البحر المحيط ٢ / ٣٩١ .

[١٣٨] سورة آل عمران : ٥ .

))[١٣٩] ، وإلى ذلك ذهب الآلوسي[١٤٠]، وقال ابن عاشور :(( وابتدأ في الذكر بالأرض ليتسنى التدرج في العطف إلى الأبعد في الحكم ؛ لأن أشياء الأرض يعلم كثيراً منها كثير من الناس أما أشياء السماء فلا يعلم أحد بعضها فضلاً عن علم جميعها ))[١٤١] ، والأرجح القول الأول . والله أعلم . وفي هذا التقديم إشارة إلهية لرقابته على الناس أجمعين في كل زمان ومكان .

**أما تقديم الفاعل على الفعل** فمنه قوله تعالى :(( قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ))[١٤٢] ففي هذه الآية قدَّم الله تعالى لفظ الجلالة (الله) على الفعل (يخلق) قال ابن عاشور في سبب ذلك :(( وتقديم اسم الجلالة على الفعل في قوله :اللَّهُ يَخْلُقُ ؛لإفادة تقوي الحكم وتحقيق الخبر ))[١٤٣]، فبيده سبحانه المشيئة المطلقة على كل شيء .

وكذلك ورد **تقديم الجار والمجرور الواقع خبراً** كما في قوله تعالى : (( بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ))[١٤٤] ففي هذه الآية الكريمة قدَّم الله تعالى الجار والمجرور الواقع خبراً وهو (بيدك) على المبتدأ وهو (الخير) . قال أبو حيان:(( وتقديم (بيدك) يدل على الحصر فدل على أن لا خير إلا بيده ))[١٤٥] ، وسبقه إلى هذا القول الرازي[١٤٦]، وقال الشوكاني: ((تقديم الخبر للتخصيص ، أي : بيدك الخير لا بيد غيرك ))[١٤٧] ، وإلى ذلك ذهب البروسوي[١٤٨] ، والآلوسي[١٤٩]، فمن أراد الخير فليطلبه من ربه إذ لا واهب له غيره وهذه هي الدلالة المستوحاة من التقديم هنا .

---

[١٣٩] البحر المحيط ٢ / ٣٩١ .

[١٤٠] تفسير الآلوسي ٣ / ٧٨ .

[١٤١] التحرير والتنوير ٣ / ١٢ .

[١٤٢] سورة آل عمران : ٤٧ .

[١٤٣] التحرير والتنوير ٣ / ٩٩ .

[١٤٤] سورة آل عمران : ٢٦ .

[١٤٥] البحر المحيط ٢ / ٤٢٠ .

[١٤٦] التفسير الكبير ٨ / ٨ .

[١٤٧] فتح القدير ١ / ٥٤٩ .

وفي قوله تعالى :((فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ))[١٥٠] قدَّم الله تعالى قوله :(عليك) على قوله: (البلاغ) ، فقدَّم سبحانه (( الجار والمجرور على المبتدأ ؛ لأنه موضع الاهتمام من جهة وليأخذ التعبير جرسه الموسيقي من جهة أخرى وكلاهما من خصائص البلاغة والإعجاز القرآني ))[١٥١] ، فرسم التقديم واجب النبوة الكريمة المتمثل بالبلاغ فحسب . إنه الواجب المحدد الذي صيغَ بأدق التعابير وأوضح الأساليب .

أما قوله تعالى :(( قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ))[١٥٢] فنلحظ فيه تقدم الجار والمجرور وهو (لكم) على (آية) وهذا التقديم (( للاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر))[١٥٣] ، فالغاية أن يوقن المتلقي ويفهم مراد التوجيه القرآني ولذلك جاء التقديم هنا . إنها الدقة المتناهية في الاستعمالات المعجزة لمتاحات اللغة العربية بكل جمالياتها التعبيرية .

أما **تقديم فعل على فعل** فمنه قوله تعالى :((يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ))[١٥٤] فقدَّم الله تعالى في هذه الآية الكريمة فعل الأمر(اسجدي)على فعل الأمر (اركعي) واختلف العلماء . رحمهم الله . في تأويل ذلك : فقال المبرِّد :(( فإن العرب إذا كان العطف بالواو قدَّمت وأخَّرَت ، قال الله تبارك وتعالى :(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)(١٥٥)، وقال : (يَا مَعْشَرَ

---

[١٤٨] روح البيان ٢ / ١٨ .

[١٤٩] تفسير الآلوسي ٣ / ١١٤ . ١١٥ .

[١٥٠] سورة آل عمران : ٢٠ .

[١٥١] الجدول ٢ / ١٣٧ .

[١٥٢] سورة آل عمران: ١٣ .

[١٥٣] صفوة التفاسير ١ / ١٩٠ .

[١٥٤] سورة آل عمران: ٤٣ .

[١٥٥] سورة التغابن : ٢ .

الْجِنِّ وَالْإِنْسِ)(١٥٦)، وقال :( يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ )(١٥٧) ، ولو كان بـ " ثم " أو بـ " الفاء " لم يصلح إلا تقديم المقدم ، ثم الذي يليه واحداً فواحداً ))[١٥٨] .

وذكر الماوردي وجهين في تأويل ذلك ، أحدهما : ما ذكره المبرد ، والوجه الآخر هو :(( أنه كان مقدماً في شريعتهم وإن كان مؤخراً عندنا ))[١٥٩] ، وإلى ذلك ذهب الآلوسي[١٦٠] .

أما ابن عطية فقد قال بعد أن ذكر الوجهين السابقين :(( قد عُلمَ أن السجود بعد الركوع فكيف جاءت "الواو" بعكس ذلك ؟ فالقول عندي في ذلك : أن مريم أُمرت بفصلين ومعلمين من معالم الصلاة ، وهما طول القيام والسجود ، وخُصَّا بالذكر لشرفهما في أركان الصلاة ، إذ العبد يقرب في وقت سجوده من الله تعالى ، وهذان يختصان بصلاتها مفردة ، وإلا فمن يصلي وراء إمام فليس يقال له : أطل قيامك ))[١٦١]، وذكر ابن الجوزي ما سبق ذكره من تأويلات وأضاف وجهاً آخر هو :(( أن المعنى استعملي السجود في حال ، والركوع في حال ، لا أنهما يجتمعان في ركعة واحدة فكأنه حثٌ لها على فعل الخير ))[١٦٢] ، وأجاد أبو حيان تأويل ذلك فقال :(( فلا يُسأل لمَ قدَّم السجود على الركوع إلا من جهة علم البيان ، والجواب : أن السجود لما كانت الهيئة التي هي أقرب ما يكون العبد فيها إلى الله قدَّم وإن كان متأخراً في الفعل على الركوع فيكون إذ ذاك التقديم بالشرف ))[١٦٣] ، وإلى ذلك ذهب الثعالبي [١٦٤]، وهذا الذي أُرجحه . والله

---

[١٥٦] سورة الرحمن : ٣٣ .

[١٥٧] سورة آل عمران : ٤٣ .

[١٥٨] الكامل – محمد بن يزيد المبرد – علق عليه محمد أبو الفضل – دار نهضة مصر – القاهرة – د.ت : ٢ / ١٨ .

[١٥٩] تفسير الماوردي ١ / ٣٢٢ .

[١٦٠] تفسير الآلوسي ٣ / ١٥٧ .

[١٦١] المحرر الوجيز ٣ / ١١٥ . ١١٦ .

[١٦٢] زاد المسير ١ / ٣٨٨ .

[١٦٣] البحر المحيط ٢ / ٤٥٦ .

[١٦٤] تفسير الثعالبي ٢ / ٤٤ .

أعلم . وهذا هو السر في هذا التقديم القرآني فقد جاء لغاية عظمى تستهدف المتلقي في كل زمان ومكان بمجيئه بهذا الجمال الأخّاذ، وبهذا أختم هذا المطلب .

## المطلب الرابع : أسلوب الذكر :

ومما ورد منه قوله تعالى :((قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ))[١٦٥] .

قال الماوردي :(( وإنما خص الخير بالذكر ، وإن كان قادراً على الخير والشر ؛ لأنه المرغوب في فعله ))[١٦٦] ، وإلى ذلك ذهب ابن الجوزي [١٦٧] . أما الزمخشري فقد قال :(( فإن قلت : كيف قال : (بيدك الخير) فذكر الخير دون الشر ، قلت : لأن الكلام إنما وقع في الخير الذي يسوقه إلى المؤمنين وهو الذي أنكرته الكفرة فقال : بيدك الخير تؤتيه أولياءك على رغم من أعدائك ، ولأن كل أفعال الله تعالى من نافع وضار صادر عن الحكمة والمصلحة فهو خير كله كإيتاء الملك ونزعه))[١٦٨] ، وإلى ذلك ذهب الخازن[١٦٩] ، والبروسوي[١٧٠] . أما ابن عطية فقد قال:(( وخص الله تعالى (الخير) بالذكر وهو تعالى بيده كل شيء ، إذ الآية في معنى دعاء ورغبة ، فكأن المعنى : بيدك الخير والشر ، فحذف لدلالة أحدهما على الآخر ، كما قال : (تَقِيكُمُ الْحَر) ))[١٧١] ، وإلى ذلك ذهب القرطبي[١٧٢]، والثعالبي[١٧٣]، وذكر أبو حيان سبب

---

[١٦٥] سورة آل عمران : ٢٦ .

[١٦٦] تفسير الماوردي ١ / ٣١٦ .

[١٦٧] زاد المسير ١ / ٣٦٩ .

[١٦٨] الكشاف ١ / ٤٢٢ .

[١٦٩] تفسير الخازن ١ / ٣٣٤ .

[١٧٠] روح البيان ٢ / ١٨ .

[١٧١] المحرر الوجيز ٣ / ٦٨ . سورة النحل : ٨١ .

[١٧٢] تفسير القرطبي : ١٢٨٦/٢ .

[١٧٣] تفسير الثعالبي: ٩٦/٢ .

الاقتصار على ذكر (الخير) وحده فقال :(( وفي الاقتصار على ذكر الخير تعليم لنا كيف نمدح بأن نذكر أفضل الخصال ))[١٧٤] ، وأجاب البقاعي عن ذلك فقال :(( ولم يذكر الشر تعليماً لعباده الأدب في خطابه وترغيباً لهم في الإقبال عليه والإعراض عما سواه ))[١٧٥] ، وإلى ذلك ذهب الآلوسي[١٧٦] ، فما أروع إشارات المفسرين وقراءتهم لهذا التخصيص بالذكر للفظة دون أخرى وكلها حملت بعداً جمالياً رائعاً .

وكذلك الحال مع قوله تعالى :((نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ))[١٧٧] فقد ذكر الله ﷻ في هذه الآية الكريمة الرسول ﷺ وخاطبه سبحانه بقوله : (نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ) ، أي: القرآن الكريم ، أما حين ذكر (التوراة) و(الإنجيل) لم يذكر على من أُنزلا وسبب ذلك بيَّنه أبو حيان فقال :(( وأتى هنا بذكر المنزل عليه وهو قوله (عَلَيْكَ) ، ولم يأتِ بذكر المنزل عليه التوراة ولا المنزل عليه الإنجيل تخصيصاً له وتشريفاً بالذكر ))[١٧٨] . أما الشوكاني فقد كان له رأي آخر حيث قال :(( ولم يذكر في الكتابين من أنزلا عليه وذكر أن الكتاب نزل على رسول الله ﷺ ؛ لأن القصد هنا ليس إلا ذكر الكتابين لا ذكر من نزلا عليه ))[١٧٩] ، والرأي الراجح هو الأول . والله أعلم . ليحصل المقصود من بيان المنزلة العظمى لهذا الكتاب الخالد بصفته الكتاب الخاتم لرسالات السماء .

وفي قوله تعالى :((فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ))[١٨٠] خصَّ الله ﷻ في هذه الآية الكريمة (الوجه) بالذكر وميَّزه عن سائر أعضاء الجسم الأخرى وسبب ذلك بيَّنه العلماء . رحمهم

---

[١٧٤] البحر المحيط ٢ / ٤٢٠ .

[١٧٥] نظم الدرر ٢ / ٥٥ .

[١٧٦] تفسير الآلوسي ٣ / ١١٥ .

[١٧٧] سورة آل عمران : ٣ .

[١٧٨] البحر المحيط ٢ / ٣٧٧ .

[١٧٩] فتح القدير ١ / ٥٢٤ .

[١٨٠] سورة آل عمران : ٢٠ .

الله تعالى . أمثال ابن عطية[١٨١] ، والقرطبي[١٨٢] ، وأبرز من بيَّن ذلك الخازن حيث قال :(( وإنما خصَّ الوجه بالذكر ؛ لأنه أشرف جوارح الإنسان الظاهرة إذا خضع وجهه لشيء فقد خضع له سائر جوارحه، وقيل : أراد بالوجه العمل ، أي : أخلصت عملي لله وقصدت بعبادتي الله ))[١٨٣] ، وإلى ذلك ذهب أبو حيان[١٨٤] ، والمحلي[١٨٥] وهو الذي أرجحه فبه يحصل المقصود من هذا التوجيه القرآني .

وكذلك الحال مع قوله تعالى :((الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ)) [١٨٦] ففي هذه الآية الكريمة خصَّ الله ﷻ الاستغفار بالأسحار ، وميَّز سبحانه هذا الوقت العزيز عن غيره من الأوقات وسبب ذلك بيَّنه العلماء فقال القرطبي :(( وخصَّ السحر بالذكر ؛ لأنه مظان القبول ووقت إجابة الدعاء ))[١٨٧] ، وإلى ذلك ذهب أبو حيان[١٨٨] ، والبيضاوي[١٨٩] ، والشوكاني[١٩٠]

أما المحلي فقد بين أنها (( خصت بالذكر ؛ لأنها وقت الغفلة ولذة النوم ))[١٩١] .

والاستغفار بالأسحار بعد هذا كله يلقي ظلالاً رفَّافة ندية عميقة ولفظة "الأسحار" بذاتها ترسم ظلال هذه الفترة من الليل قبيل الفجر ، الفترة التي يصفو فيها الجو ويرق ويسكن ، وتترقرق فيها خواطر النفس

---

[١٨١] ينظر : المحرر الوجيز ٣ / ٥٧ .

[١٨٢] ينظر : تفسير القرطبي ٢ / ١٢٨٧ .

[١٨٣] تفسير الخازن ١ / ٣٣١ .

[١٨٤] البحر المحيط ٢ / ٤١١ .

[١٨٥] تفسير الجلالين : ٧٠ .

[١٨٦] سورة آل عمران : ١٧ .

[١٨٧] تفسير القرطبي ٢ / ١٢٨٠ .

[١٨٨] البحر المحيط ٢ / ٤٠٠ .

[١٨٩] تفسير البيضاوي ١ / ١٥٢ .

[١٩٠] فتح القدير ١ / ٥٤٠ .

[١٩١] تفسير الجلالين : ٦٩ .

وخوالجها الحبيسة فإذا انضمت إليها صورة الاستغفار ألقت تلك الظلال المنسابة في عالم النفس وفي الضمير الوجود سواء وتلاقت روح الإنسان وروح الكون في الاتجاه لباريء الكون وباريء الإنسان[١٩٢].

ولهذا (( خُصصت الأسحار دون غيرها من الأوقات ))[١٩٣].

أما قوله تعالى ((يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ))[١٩٤] فنجد فيه تخصيص (الخير) بالذكر وسبب ذلك بيّنه البروسوي فقال :(( خصَّ بالذكر في الخير للإشعار بكون الخير مراداً بالذات وكون إحضار الشر من مقتضيات الحكمة التشريعية ))[١٩٥] ، وإلى ذلك ذهب الآلوسي[١٩٦] ، وإننا إذ نقرأ دلالة ذلك لا ننسى البعد الجمالي للتلميح هنا بضرورة تقديم الخير استعداداً لليوم الآخر .

ونجد في قوله تعالى ((هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ))[١٩٧] تخصيص التصوير بالذكر، فقد خصّ الله تعالى من بين شؤون القيُّومية تصوير البشر ؛ لأنه من أعجب مظاهر القدرة ولأن فيه تعريضاً بالرد على النصارى في اعتقادهم إلهية عيسى من أجل أن الله صوَّره بكيفية غير معتادة فبيَّن لهم أن الكيفيات العارضة للموجودات كلها من صنع الله وتصويره سواء المعتاد وغير المعتاد[١٩٨] .

وفي قوله تعالى :((إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ))[١٩٩] خص الكفار بالذكر ، فقال أبو حيان :(( اختص الكفار ؛ لأن المؤمنين تغني عنهم أموالهم

---

[١٩٢] في ظلال القرآن ١ / ٥٥٣ .

[١٩٣] تفسير سورة آل عمران : ١٨ .

[١٩٤] سورة آل عمران : ٣٠ .

[١٩٥] روح البيان ٢ / ٢١ .

[١٩٦] تفسير الآلوسي ٣ / ١٢٦ .

[١٩٧] سورة آل عمران ٣ : ٦ .

[١٩٨] التحرير والتنوير ٣ / ١٢ .

[١٩٩] سورة آل عمران : ١٠ .

التي ينفقونها في وجوه البر فهم يجنون ثمرتها في الآخرة وتنفعهم أولادهم في الآخرة يسقونهم ويكونون لهم حجاباً من النار ويشفعون فيهم إذا ماتوا صغاراً وينفعونهم بالدعاء الصالح كباراً ))[٢٠٠] ، وبهذا أختم هذا المطلب .

**المطلب الخامس : المبالغة[٢٠١] :**

ومن المبالغة الواردة في هذه الآيات قوله تعالى :((هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ))[٢٠٢]. قال عنها أبو حيان :((صوَّر : جعل له صورة ، قيل : وهو بناء للمبالغة ، من صار يصور إذا أحال وثنى إلى حال ولما كان التصوير إمالة إلى حال وإثباتاً فيها جاء بناؤه على المبالغة))[٢٠٣] ، وإلى ذلك ذهب الثعالبي[٢٠٤]، فتصوير الخلق ليس بالأمر الهيّن فقد خُلقنا في أحسن تقويم وصورنا الله فأحسن صورنا ، وفي ذلك إشارة للخلق أجمعين بعِظَم منّه وإنعامه سبحانه وتعالى علينا في مختلف مراحلنا العمرية ، ولهذا جاءت المبالغة هنا .

وكذلك قوله تعالى :((زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ))[٢٠٥].

قال الزمخشري عنها :((جعل الأعيان التي ذكرها شهوات مبالغةً في كونها مشتهاة محروصاً على الاستمتاع بها ، والوجه أن يقصد تخسيسها فيسميها شهوات لأن الشهوة مسترذلة عند الحكماء مذموم من اتبعها شاهد على نفسه بالبهيمية وقال :(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ) ثم جاء بالتفسير ليقرر أولاً في النفوس أن

---

[٢٠٠] البحر المحيط ٢ / ٣٩٠ . ٣٩١ .

[٢٠١] المبالغة : هي أن يذكر المتكلم وصفاً فيزيد فيه حتى يكون أبلغ المعنى الذي قصده ، وهي ضربان : مبالغة بالوصف بأن يخرج إلى حد الاستحالة ، ومبالغة بالصيغة . الإتقان ٢/ ٩٤ .

[٢٠٢] سورة آل عمران : ٦ .

[٢٠٣] البحر المحيط ٢ / ٣٧١ .

[٢٠٤] تفسير الثعالبي ٢ / ٨ .

[٢٠٥] سورة آل عمران : ١٤ .

المزين لهم حبه ما هو إلا شهوات لا غير ، ثم يفسر بهذه الأجناس فيكون أقوى لتخسيسها وأدل على ذم من يستعظمها ويتهالك عليها ويرجح طلبها على طلب ما عند الله))[٢٠٦]، وإلى ذلك ذهب أبو حيان[٢٠٧]، والبيضاوي[٢٠٨]، والبروسوي[٢٠٩]، والشوكاني[٢١٠]، والآلوسي[٢١١]

ولـ (من) في هذه الآية الكريمة مكانها الذي أغفله الزمخشري والمفسرون . رحمهم الله أجمعين . ، وذلك أن الآية تقول :(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ) والعطف في نية التكرار ، أي : ومن الولدان ، ومن القناطير المقنطرة ... إلخ ، وهذا يعني أن المزَيَن جانب الشهوة من هذه الأشياء لا هذه الأشياء ذواتها فالمحبوب من المرأة وما بعدها ما يُشكلُ جهة للإشباع وهو لاشك معنوي وليس ذاتياً . والله أعلم . .

أما قوله تعالى :((إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ))[٢١٢] فقد قال عنه أبو حيان :(( وجعلهم نفس الوقود مبالغةً في الاحتراق كأن النار ليس لها ما يضرمها إلا هم ))[٢١٣]، والملاحظ أنَّ هذا التعبير ((يسلبهم كل خصائص الإنسان ومميزاته ويصورهم في صورة الحطب والخشب وسائر وقود النار))[٢١٤] وهذا هو النهاية في شرح العذاب فإنه لا عذاب أزيدُ من أن تشتعل النار فيهم كاشتعالها في الحطب اليابس[٢١٥]. إنها المبالغة في أروع صورها لبشاعة العذاب الذي ينتظر الكافرين علّهم يرعوون ويعودون إلى جادة الصواب ، والملاحظ أن المبالغة في هذه الأمثلة كلها

---

[٢٠٦] الكشاف ١ / ٤١٦ .

[٢٠٧] البحر المحيط ٢ / ٣٩٦ .

[٢٠٨] تفسير البيضاوي ١ / ١٥١ .

[٢٠٩] روح البيان ٢ / ٩ .

[٢١٠] فتح القدير ١ / ٥٣٩ .

[٢١١] تفسير الآلوسي ٣ / ٩٨ . ٩٩ .

[٢١٢] سورة آل عمران : ١٠ .

[٢١٣] البحر المحيط ٢ / ٣٨٨ .

[٢١٤] في ظلال القرآن ١ / ٥٤٦ .

[٢١٥] التفسير الكبير ٧ / ١٨٥ .

تهدف إلى لفت انتباه المتلقي إلى أمر عظيم ينبغي أن لا يغفل عنه مهما كانت ظروفه ، وبهذا أختم حديثي عن المبالغة في بداية هذه السورة الكريمة .

## المطلب السادس : المشاكلة[٢١٦] :

ومن المشاكلة الواردة في هذه الآيات قوله تعالى :((وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ))[٢١٧].

قال عنها ابن عاشور:((والمراد هنا: تدبير اليهود لأخذ المسيح وسعيهم لدى ولاة الأمور ليمكنوهم من قتله، و(مكر الله) بهم هو تمثيل لإخفاق الله تعالى مساعيهم في حال ظنهم أن قد نجحت مساعيهم وهو هنا مشاكلة ))[٢١٨]، وهذا قول الشوكاني[٢١٩] ، والآلوسي[٢٢٠] ، وتوحي المشاكلة هنا بعِظَم يد القدرة التي تدير معركة الخير ضد الشر وفيها تنبيه لأهل الباطل لو كانوا يعلمون بأن مصير أعمالهم إلى بوار .

أما قوله تعالى :((يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ))[٢٢١] فقد ذكر الله ﷻ في هذه الآية الكريمة قوله :(وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ) وهذا التعبير يُطلق عليه "المشاكلة" ؛ لأن الله يُخاطب الناس بما يشابه لغتهم ونفوسهم ... ومثل ذلك كثير في القرآن الكريم وهو من الخصائص العربية المألوفة[٢٢٢]، وفي طيات هذا التحذير الإلهي تكمن الحكمة بضرورة انتباه المحَذَرين من سوء العاقبة أن يقولوا يوم القيامة إن كنا عن هذا لغافلين ، وهذه هي الضِلال الجمالية التي ترسمها المشاكلة في بداية هذه السورة الكريمة .

---

([٢١٦]) هي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديراً . الجدول ١٤٩/٢ .

[٢١٧] سورة آل عمران : ٥٤ .

[٢١٨] التحرير والتنوير ٣ / ١٠٦ .

[٢١٩] فتح القدير ١ / ٥٦٩ .

[٢٢٠] تفسير الآلوسي ٣ / ١٧٨ .

[٢٢١] سورة آل عمران : ٣٠ .

[٢٢٢] الجدول ٢ / ١٥٥ .

**الخاتمة**

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد : فلا بد لي في نهاية المطاف أن أنبه على أهم النتائج التي توصلت إليها والتي تمثلت بالآتي :

١- وردت في بداية سورة آل عمران تعبيرات تبدو للوهلة الأولى أنها مُشْكلة ، ولكن سُرعان ما يزول هذا الإشكال بعد الاستقراء الدقيق للآيات البينات وفق معانيها الدقيقة التي تنطلق من الاستعمال الأمثل لمتاحات اللغة العربية من لدن المفسرين ، وقد كانت طريقة إزالة الإشكال في كل مرة ذات خصوصية تراعي السياق العام للآية الكريمة موطن الشاهد ، وكذلك تراعي متعلقات الإشكال كلها من شخوص وهيئات وأحداث رافقت ذلك ليتم التعامل معها بما يتناسب مع المعنى الشرعي الذي تتضمنه سياقات اللغة العربية وهو بعينه مقصد الشارع الحكيم .

٢- وقد تضمنت هذه الآيات البينات ضروباً من الفنون البلاغية مثل التكرار والاستعارة والتقديم والذكر والمبالغة والمشاكلة والتي جاءت بكل جمالياتها التعبيرية للتأثير في المتلقي في كل زمان ومكان ، فلم تأتِ كيفما اتفق ، وإنما جاءت موافقة للسياق اللغوي والتعبيري مبرزةً أعلى درجات القيم الجمالية في التعبير القرآني .

٣- وكان لتوافر هذه الفنون البلاغية في هذه الآيات البينات الأثر الكبير في إضفاء صورة ذات قيم عالية على هذه الآيات البينات وجمال فريد من نوعه يُعجزُ البشر على مر العصور على اختلاف أجناسهم ودياناتهم ليكون الدستور الأوحد وخاتمة رسالات السماء برغم كل محاولات المشككين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

## المصادر

١- الإتقان في علوم القرآن – جلال الدين عبد الرحمن السيوطي الشافعي – (ت٩١١هـ) – دار الكتب العلمية – بيروت – ط١ – ١٩٨٧ م .

٢- إعراب القرآن الكريم وبيانه – محيي الدين الدرويش – دار الإرشاد للشؤون الجامعية – سوريا – ط٨ –٢٠٠١م.

٣- إملاء ما منَّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن – عبد الله بن الحسين العكبري – (ت٦١٦هـ) – دار الكتب العلمية – بيروت – ط١– ١٩٧٩م .

٤- بحر العلوم – لأبي الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي – (ت٣٧٥هـ) – تحقيق الشيخ علي محمد والشيخ عادل أحمد و د .زكريا عبد المجيد – دار الكتب العلمية – بيروت – ط١– ١٩٩٣ م .

٥- تاج العروس من جواهر القاموس – للإمام اللغوي محب الدين أبي الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني الو اسطي الزَّبيدي الحنفي – (ت١٢٠٥هـ) – دار صادر– بيروت – د . ت

٦- التحرير والتنوير المعروف بـ "تفسير ابن عاشور التونسي" – محمد الطاهر بن عاشور– مؤسسة التاريخ – بيروت – ط١ – ٢٠٠٠م .

٧- التصوير الفني في القرآن – سيد قطب – (ت١٩٦٦م) – دار الشروق – ط١١– ١٩٨٩ م .

٨- التعريفات – أبو الحسن علي بن محمد الجرجاني – (ت٨١٦هـ) – طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية العامة – آفاق عربية – د . ت .

٩- تفسير البحر المحيط – محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي – (ت٧٤٥هـ) – دار الفكر –ط١٢– ١٩٧٨ م .

١٠- تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل – للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود الفرَّاء البغوي الشافعي– (ت٥١٦هـ) – تحقيق عبد الرزاق المهدي – دار إحياء التراث العربي– بيروت – ط١– ٢٠٠٠ م .

١١- تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل – لأبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي – (ت٦٨٥هـ) – دار الكتب العلمية – بيروت –ط١ – ١٩٨٨ م .

١٢- تفسير الثعالبي المسمى الجواهر الحسان في تفسير القرآن – للإمام عبد الرحمن بن محمد الثعالبي المالكي – (ت٨٧٥هـ) – تحقيق الشيخ علي محمد والشيخ عادل أحمد و د . عبد الفتاح أبو سنة – دار إحياء التراث العربي – بيروت — ط١ – ١٩٩٧ م .

١٣- تفسير الجلالين – الإمامين جلال الدين محمد بن أحمد المحلي – (ت٨٩٠هـ) وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي – (ت٩١١هـ) – مطبوع بهامش القرآن الكريم – دار المعرفة – بيروت – ١٩٨٢ م .

١٤- تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل – علي بن محمد المعروف بالخازن – (ت٧٤١هـ) – دار الفكر – بيروت – ١٩٧٩ م .

١٥- تفسير روح البيان – إسماعيل حقي البروسوي – (ت١١٣٧هـ) – دار الفكر– د . ت .

١٦- تفسير القرآن العظيم – للإمام الحافظ عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي ابن أبي حاتم – (ت٣٢٧هـ) – تحقيق أسعد محمد الطيب – مكتبة نزار مصطفى الباز– الرياض ط٢ – ١٩٩٩ م

١٧- تفسير الماوردي – علي بن حبيب الماوردي البصري – (ت٤٥٠هـ) – تحقيق خضر محمد خضر – راجعه د . عبد الستار أبو غدة – مطابع مقهوي – الكويت — ط١– ١٩٨٢ م .

١٨- تلخيص البيان في مجازات القرآن – الشريف الرضي– حققه وقدَّم له محمد عبد الغني حسن – دار إحياء الكتب العربية – القاهرة — ط١– ١٩٥٥ م .

١٩- جامع البيان عن تأويل آي القرآن– محمد بن جرير الطبري– (ت٣١٠هـ) – دار الفكر – بيروت – ١٩٨٨م.

٢٠- الجامع لأحكام القرآن – لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي – (ت٦٧١هـ) – مطبوعات دار الشعب– د . ت .

٢١- الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه – تصنيف محمود صافي – د . ت .

٢٢- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني – شهاب الدين محمود الآلوسي– (ت ١٢٧٠هـ) – دار إحياء التراث العربي – بيروت – د . ت .

٢٣- زاد المسير في علم التفسير– عبد الرحمن بن الجوزي – (ت٥٩٧هـ) – بيروت —ط٣ – ١٤٠٤هـ .

٢٤- سيرة ذاتية – سعيد النورسي – (ت١٩٦٠م) – إعداد وترجمة إحسان الصالحي – ط١ — ١٩٩٨م .

٢٥- السيرة النبوية – ابن هشام – (ت٢١٨هـ) – حقَّقها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي– مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده – مصر – ١٩٣٦ م .

٢٦- الصحاح – إسماعيل بن حماد الجوهري– (ت٣٩٣هـ) – تحقيق أحمد عبد الغفور عطار– دار العلم للملايين – بيروت – ط٢ – ١٩٧٩ م .

٢٧- صفوة التفاسير– محمد علي الصابوني– دار الصابوني– القاهرة – ط٩ – د . ت .

٢٨- الصناعتين– الحسن بن عبد الله العسكري– تحقيق علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم – المكتبة العصرية – بيروت – ١٩٨٦ م .

٢٩- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير – محمد بن علي الشوكاني – (ت ١٢٥٠هـ) – حقَّقه وخرَّج أحاديثه د.عبد الرحمن عميرة – وضع فهارسه وشارك في تخريج أحاديثه لجنة التحقيق والبحث العلمي بدار الوفاء – دار الوفاء – المنصورة – ط٢ – ١٩٩٧

٣٠- في ظلال القرآن – سيد قطب – (ت١٩٦٦م) – دار إحياء التراث العربي – بيروت – ط٧ – ١٩٧١ م .

٣١- القرآن الكريم دراسة – إبراهيم علي أبو الخشب – دار الثقافة العربية للطباعة – د . ت .

٣٢- الكامل – أبو العباس محمد بن يزيد المبرد –عارضه بأصوله وعلق عليه محمد أبو الفضل – دار نهضة مصر – القاهرة .

٣٣- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل – جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي – (ت٥٣٨هـ) – دار المعرفة – بيروت – د . ت .

٣٤- لسان العرب – أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصري – (ت٧١١هـ) – دار صادر – بيروت – د . ت .

٣٥- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز – لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي – (ت٥٤٢هـ) – تحقيق الرَّحالي الفاروق وعبد الله الأنصاري والسيد عبد العال إبراهيم ومحمد الشافعي – الدوحة – ط١ – ١٩٧٧م.

٣٦- معاني القرآن – لأبي زكريا يحي بن زياد الفرَّاء – (ت٢٠٧هـ) – عالم الكتب – بيروت – ط٢– ١٩٨٠ م .

٣٧- المعجزات القرآنية – سعيد النورسي – (ت١٩٦٠م) – ترجمة إحسان الصالحي ط١– بغداد – ١٩٩٠ م .

٣٨- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور- برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي - (ت٨٨٥هـ) - خرَّج أحاديثه ووضع حواشيه عبد الرزاق غالب المهدي - دار الكتب العلمية - بيروت ط١ - ١٩٩٥ م .

٣٩- الوسيط في تفسير القرآن المجيد / علي بن أحمد الواحدي النيسابوري - (ت٤٦٨هـ) - تحقيق الشيخ عادل أحمد والشيخ علي محمد و د.أحمد محمد و د.أحمد عبد الغني و د.عبد الرحمن عويس -قدَّمه وقرَّظه د.عبد الحي الفرماوي - دار الكتب العلمية – بيروت- ط١ - ١٩٩٤ م

**الرسائل الجامعية :**

٤٠- دلالة الأنساق البنائية في التركيب القرآني -عامر عبد المحسن السعد - أطروحة دكتوراه مقدمة إلى كلية الآداب - جامعة البصرة - ١٩٩٥ م .

٤١- قضايا التعبير القرآني في سورة مريم - إسراء جميل شريف - رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية التربية للبنات - جامعة الأنبار- ٢٠٠١ م .